الفصل الثاني

عقلية التأزيم وتوالد الأزمة

عقلية التأزيم

الأزمة الفكرية داء خطير، ومرض يشتد خطرها أحياناً فتصبح أعصى على الحل، إلى حدّ أنها تحيل الحلول نفسها إلى أزمات جديدة تضيفها إلى رصيدها البغيض، مثل المكروب القوي، يتفاعل أحياناً مع الدواء تفاعلاً عكسياً محولاً إياه إلى غذاء يستزيد به قوة وفتكاً في الجسم المريض.

وفي فترات سابقة من التاريخ، قدمت بعض الحلول لبعض جوانب الأزمة الفكرية فاستحالت إلى أزمات لأسباب كثيرة، تحتاج إلى البحث المتعمق في تلك الحلول، وفي جوانب الأزمة، وفي الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي للأمة.

والقرآن العظيم ينعى على أولئك الذين يقدم لهم الحل فيعقدونه ويؤزمونه، أكثر مما ينعى على أولئك الذين يقدم لهم الحل فيرفضونه، وضرب للأولين مثلاً أصحاب البقرة من قوم موسى -عليه السلام-، أو حملة «الفكر البقريّ»، كما يقول أحد الظرفاء، أمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة لمساعدتهم على حل لغز الجريمة الغامضة، جريمة القتل الخفية، التي كادت أن تفضي إلى حرب أهلية بينهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ

obeikandi.com

لَوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 67-73].

ولبساطة الحل ظنوا أن نبيهم يسخر منهم، وتلك قضية أخرى وعقولهم المريضة وفكرهم المتعفن جعلهم يحولون ذلك الحل البسيط الذي لا يغمض على أبسط إنسان إلى عقدة العقد، واستمر جدلهم في البقرة نفسها: ما لونها؟ ما حقيقتها؟ ما طريقة حياتها؟ كم ثمنها؟ أين مكان وجودها؟ من هم مالكوها؟ ونسوا الجريمة نفسها والفتنة المتربصة على أبوابهم بسببها، ثم لما غلا ثمن البقرة كادوا يحتفظون بها ويمتنعون عن ذبحها شحاً وبخلاً بها. وأخيراً أقبلوا على ذبحها وهم متمردون: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. ذلك نموذج رائع لطريقة تحويل الحل البسيط إلى أزمات متتالية.

والمسلمون يوم أوقفوا عقولهم وألغوا صلاحيتها للاجتهاد، وأقالوها من مسؤولياتها، وانصرفوا نحو التقليد حتى استكانت له نفوسهم، قلدوا فيمن قلدوا سنن الأمم الأخرى، خاصة اليهود والنصارى؛ قلدوهم وتبعوهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما تنبأ بذلك رسول الأمة -عليه الصلاة والسلام-(1)، فكم من حل عقدوه وحولوه إلى أزمة كما فعل أصحاب البقرة وعبدة العجل، وكم من علاج أمرضوه، وكم من أدوية أبطلوا مفعولها، وكم من دواء اهتموا به لذاته دون العناية بفسح السبل له للقيام بمفعوله. ونضرب لإبراز حجة ما قلناه بعض الأمثلة التي تشير إلى الإفراط في الاشتغال بموضوع إسلامي معين، إلى درجة الغفلة عن تسخيره للحاجة المرادة منه، التي عني به من أجلها، وحقق مناط حكمه لعلتها.

---

(1) الحديث رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد، ونصه عند البخاري «عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم. قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟».

1- التأزيم من خلال توهم رعاية السنة

جمع السنة النبوية المطهرة وتدوينها ووضع قواعد علوم الحديث دراية ورواية مفخرة من مفاخر هذه الأمة ولا شك. ولقد بذل الجهد الكبير من أفواج من علماء السلف ليجمعوا نصوص السنة، ويميزوا الصحيح والضعيف من أخبارها، ويضعوا موازين الجرح والتعديل لتصنيف رواتها، لتصبح سنة رسول الله وسيرته حية خالدة، يستطيع الملم عندما يقرؤها، أو يطلع عليها أن يعايش رسول الله بقلبه وعقله ووجدانه، كما عايشه أصحابه ومعاصروه. وبذلك يستمر رسول الله ﷺ في أداء دور القدوة والنموذج والمثل الأعلى للبشرية في حياته وبعد مماته، وتظل الإنسانية تستلهم من سيرته العطرة وسنته المطهرة الحلول السليمة لمشاكلها، والعلاج الناجع لأدوائها وقدرات التأسي به في الربط بين قيم القرآن والواقع المعيش، بشكل منهجي سليم؛ فالقرآن مصدر كلي مطلق منشئ للفكر والحضارة والمعرفة، والسنة منهج للربط بين أحكام القرآن وقيمه وواقع محدد المعالم، معروف المواصفات، يمكن قياسه والقياس عليه.

لكن ما حدث بعد ذلك في عصور الانحطاط أنه قد ساد جدل في الشكليات والحرفيات المتعلقة بتلك الجهود، ساهم في تغييب تلك المقاصد، وتفاقمت ظاهرة التناصر للمذاهب، وتجاوز مصالح المجتمع، وتعزيز نزعات التقليد، ومحاربة محاولات الاجتهاد الضرورية لمواصلة العطاء والبناء، وطار كل مذهب أو فرقة أو طائفة بأجزاء من السنة يعتمدها لموافقتها ما يذهب إليه وتجاوز غيرها من السنن، كما أهمل الكتاب.

أما فهم السنة بجملتها باعتبارها منهجاً كاملاً في صناعة جيل القدوة والأسوة، وفقهها باعتبارها منهجاً كاملاً للتأسي والاتباع، ومعرفة كيفية إقامة بناء الفكر والحضارة والثقافة والعمران على هديها، وبناء الأمة على توجهها، فهذه أمور كان نصيبها من الاهتمام أضعف بكثير، إذ قصرت الجهود التي بذلت في فهم السنة وإدراك مراميها ومغازيها، وفقه السيرة ومعرفة توجيهاتها عن الجهود التي بذلت في مجالات التوثيق والتضعيف وروايات الآثار. ومع

الإسراف في تناول قضايا الحجية وشكليات التوثيق، تضاعف القصور في قضايا الفهم الكلي وإدراك الغايات والمقاصد، فتوهم الكثيرون وقوع التعارض بين السنة والقرآن من ناحية، وبين السّنة والسنة من ناحية أخرى، وبين السنة وكثير من مصالح العباد، فعادوا مرة أخرى إلى مناقشة قضية الحجية إجمالاً أو تفصيلاً، وقضايا الروايات والحكم على الأحاديث وما يتعلق بذلك بحثاً عن حل لا يمكن الوصول إليه إلا بمنهجية القرآن المعرفية.

ولو أن الجهود سارت متوازية متعاضدة بين أهل الفقة والفهم وبين أهل الرواية، لأعطت تلك الجهود المشتركة الثمار المرجوة منها، ولم تفترق كلمة الأمة حول السنة ولتظافرت الجهود: ففريق ينفي عن السنة ما أضيف إليها، ليقدم نصوصاً صحيحة ثابتة إلى أولئك القادرين على الفقه والفهم والتحليل والاستنباط ليقوموا بذلك كله، ويعالجوا قضايا الحياة على هدي السنة النبوية ونورها ومنهجيتها، فلا تتحول السنة، التي جاءت وصاحبها رحمة للعالمين، عند البعض إلى إصر وأغلال يتمرد الناس عليها، ويحاولون الخلاص منها، ولو بنفي حجيتها إجمالاً أو حجية أنواع منها كخبر الواحد ونحوه.

2- التأزيم من خلال توهم الدفاع عن العقيدة

وشكل الانحراف في التعامل مع «علم الكلام» بدوره جزءاً من الأزمة الفكرية، ونموذجاً آخر من نماذج تأزيم الحل. فقد وضع «علم الكلام» في أول الأمر ليكون حلاً وجزءاً من عملية الإصلاح الفكري والعقدي، والدفاع عن العقيدة الإسلامية وتثبيت قواعدها، ولتمكين الخطاب الإسلامي من أدوات الدفاع والإقناع ليعمل عمله في الساحة الفكرية والدعوية، ولكن تعامل عقلية الأزمة حوّله عن قصده وغايته، وجعله جزءاً من الأزمة لا جزءاً من الحل.

فعلم الكلام وضعه علماء المسلمين الأوائل ليكون وسيلتهم للدفاع عن عقائد الأمة وحمايتها، بعد أن شرعت العقائد المناقضة في مهاجمته عقيدة الإسلام، وذلك من خلال أطروحات وأفكار أناس تسلحوا بالفكر اليوناني ومنطقه، وعلوم الأوائل من الفلاسفة الحيارى والمفكرين الوثنيين. كما قامت

حركة الترجمة في هذا المجال بدور معروف، وكان لا بد من معرفة شبه هؤلاء ومجادلتهم، وإجادة أساليبهم لرفع شبهات الخصوم عن عقائد الإسلام، وربما انتدب بعض العلماء إلى بلدان أخرى غير مسلمة لمجادلة حكام تلك البلدان وعلمائها، مثل أبي بكر الباقلاني الذي انتدب أكثر من مرة لمثل هذا.

لكن عقلية تأزيم الحلول قامت بتحويل هذا العلم عن وظيفته الأساسية، وعن كونه جزءاً من المهمة التبشيرية الحضارية للأمة، وسلاحاً من أسلحة الدعوة الإسلامية العمرانية المحررة، ليصير أداة للاقتتال بين المسلمين، وزاداً لخطاب معاكس ومناقض لغايات الخطاب الإسلامي ومقاصده، فصار وسيلة للفرقة، وعاملاً من عوامل تغذية الفتن داخل الصف الإسلامي، يكرس الفرقة الفكرية، والتعصب للمذاهب الكلامية. فإذا بالأسلحة المبتكرة للدفاع عن العقيدة والفكر تستعمل لتفريق كلمة المسلمين، وإشغالهم عن دورهم، وتعطيل دور العقيدة السليمة في حياتهم.

وبتشجيع من السلطة السياسية كانت تعقد المناظرات بين هؤلاء العلماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ويغرى بعضهم ببعض، كما كانت تعقد المناظرات الفقهية للأغراض نفسها، وقد تطرق هؤلاء المتناظرون من كلاميين وفقهاء إلى قضايا لم يكن لهم - وفق أصول المنهجية الإسلامية الواضحة ومقاصد الإسلام وغاياته - التعرض لها، وشققوا منها تفريعات صار يمارس فيها جدل لها هدف له ولا غاية منه إلا الجدال والمغالبة والمراء الذي أورث تناحراً وفرقة وعصبية واختلافاً كبيراً.

وكان من نتيجة الانحراف في هذا العلم ومنهجه، توجيه اهتمام الفاعلين في المجتمع إلى كثير من القضايا، التي شاركت بنصيب وافر في تكريس أزمة الأمة الفكرية وفرقتها، وتبديد الكثير من طاقتها، وتحجيم خطابها والحد من تأثيره، مثل قضية «خلق القرآن» وما خلفته من آثار في المستوى الفكري الثقافي والسياسي، بل وفي مستوى الأمة الحضاري. وقضية مصادر «تقويم الفعل الإنساني» و«الصراع بين النقل والعقل» وغيرها.

3- التأزيم من خلال توهم العناية بالفقه

نشأت العلوم الفقهية، وقامت جهود جمعها وتدوينها في منتصف القرن الثاني الهجري، لا لتكون شريعة مع شريعة الله، بل لتكون علاجاً لمشكلات العصر وقضاياه، وفقاً لفقه أئمة تلك العصور وفهمهم، دون تفكير في أن من سيأتي بعدهم سوف يترك شريعة الله جانباً ويقلدهم فيما قالوه أو ذهبوا إليه وفق فقههم وفهمهم وقراءتهم. وكان قصدهم الأساسي من ذلك الجمع والتدوين تمهيد الطريق لتابعيهم والقادمين من بعدهم، كي يسلكوا السبل التي سلكوها، ممثلة في الاعتصام بالكتاب العادلة، وتطبيق أحكام شرعته على قضايا الحياة جميعها، والتعامل مع مختلف الحوادث المتجددة والنوازل المستمرة، وفقاً لمقاصد الشريعة وغاياتها وكلياتها وقواعدها، للحفاظ على ارتباط الواقع المعيش في سائر الأماكن والأزمنة بأصول الشريعة الحقة ومقاصدها.

فإذا بعقلية التأزيم تحول أقوال الفقهاء إلى شريعة بجانب الشريعة، ويصبح الفقه البشري هو الشريعة، ويكون شريعة ذلك الكم الهائل من الأقوال والفتاوى والشروح والتعليقات والحواشي، والتذييلات والآراء الشخصية والأمور الافتراضية والواقعية، سواءً تعلقت بوقائع خاصة أم عامة، وسواءً أكانت وقائع أعيان أم وقائع أحوال، ليتحول كل ذلك الإنتاج البشري إلى شرع لازم في كل زمان ومكان، يُتبع أصحابه ويُقلد قائلوه على الرغم من تنوع الحوادث وتجددها الدائم المستمر.

لقد حولت عقلية التأزيم والتقليد -التي تراكمت مظاهرها وتغلغلت عواملها في نفسية الأمة- الفقه وحركته المتجددة من حركة عقلية فاقهة تدور مع الحوادث والنوازل وفقه الواقع لتقديم الحلول لمشكلاته إلى قيد يمنع العقل المسلم ويحد من حركته، ويجعلها واقفة عاجزة مشلولة ضمن أطر لا تتعداها ولا تخرج عنها، ونسيت مقاصد الإسلام وغاياته وكليات الشريعة وحكمها وعلل أحكامها في بناء الأمة والجماعة أمام الروح الفردية وروح الأنا، التي أفرزتها المعالجات الجزئية، والرؤية القائمة على فقه الحيل والمخارج، وصارت الإجابات الإسلامية عن أسئلة الحياة نوعاً من شكليات

يكفي فيها مجرد المظهر القانوني الفقهي الشكلي، ولو فقدت جوهرها وحقيقتها وروحها، ولم تحقق شيئاً من مقاصدها وغاياتها.

ولا شك أن لهذه الجوانب المتراكمة تأثيرها في ضعف الخطاب الإسلامي وقلة فاعليته في المجتمع، وتكريس الأزمة الفكرية لدى الأمة، سواءً ما نشأ منها نتيجة خطأ النظر، أو انحراف منهج التفكير، أو تناسي الغايات والمقاصد لحساب الشكليات والمظاهر. فقد أبرز مثل هذا التأزيم، للمعارف التي كانت في الأصل حلولاً، أزمة جديدة، هي أزمة «الفصام بين النظرية والتطبيق»، وأصبح ذلك سمة من سمات حركة الأمة بعد انفكاك عرى توثيق قاعدتها العقدية والفكرية، وحيويتها ووحدتها في التوجه والحركة.

4- التأزيم من خلال توهم إعادة الاتصال بين النظرية والتطبيق

أقلقت أزمة الفكر الإسلامي وخطابه بعض العلماء العظام الذين تفهموا حقيقة هذا الفصام وطبيعته وأدركوا أضراره، وأنه إذا ما استمر فسوف يفرغ الإسلام من محتواه، ورأوا آنذاك وجوب العمل ومواصلة الجهود لإعادة الاتصال بين النظرية والتطبيق، وتقديم توجيهات الكتاب والسنة في هذا المجال، والتذكير بسلوك كبار الصحابة والتابعين، لإيجاد نوع من الفهم النقي في قضايا التربية الروحية والتأليف فيها، والحث على النظر في الآثار والمقاصد، وعدم الاكتفاء بالأشكال والمظاهر، فأنتجت هذه الجهود وقتئذٍ مادة علمية من علوم الأخلاق، وقضية من قضايا السلوك أطلق عليها البعض «علم الحقيقة»، لتكون وجهاً آخر لعلم الشريعة، كما أطلق عليها البعض الآخر اسم «التصوف». ولم يكن ذلك إلا محاولة مخلصة من أولئك العلماء لإعادة الاتصال بين الحقيقة والشريعة كما كانوا يقولون، أو للقضاء على «الفصام بين النظرية والتطبيق»، وإحياء صلة الرحم بينهما، وتجاوز الإطار الشكلي القانوني الفقهي، والنظر إلى الآثار السلوكية المرتبطة بتلك الأحكام وربط كل أمر بمقصده «فالأمور بمقاصدها»، وكل وسيلة بما تؤدي إليه «فحكم الوسائل حكم المقاصد»، فما لا يحقق المقصود منه لا خير فيه، وإن ظل صحيحاً في مظهره الفقهي فأسقط الفرض أو حقق الواجب.

ولكن هذا العلم تعرض لتأثيرات الأزمة الفكرية شأنه شأن ما ذكرنا من علوم برزت في أول أمرها علاجاً لأزمة قائمة، وسياجاً واقياً من هجوم أزمات قادمة لاحت عواصف ريحها، فإذا بالأزمة الفكرية بكل ثقلها تنعكس عليها وتحولها إلى جزء من الأزمة، لا جزءاً من الحل، وإذا بالتصوف يصبح باباً تدخل منه كثير من انحرافات الأمم الأخرى، ويصبح في كثير من جوانبه دعوة للعزلة والانصراف نحو القضايا الفردية، وإهمال القضايا الجماعية وقضايا الأمة، والإغراق في نوع آخر من الشكليات والسلبيات، فأضاف لأزمة الأمة أبعاداً جديدة، وللعقل المسلم شواغل من نوع آخر، وللحياة الإسلامية مشاكل كثيرة، كان أقلها الانصراف عن قضايا الحياة الدنيا وعدم الاهتمام بها، وتحبيذ حالة العزلة عن المجتمع ومشاكله وقضاياه، بدعوى عدم الانغماس في دنيا الناس ومطالبهم الدنية.

فأضحى قطاع كبير من الأمة مشلول الطاقة، محدود الفاعلية، فضلاً عن اتهام هذا التوجه - عندما أصابه الجمود ثم التحول - لكل نشاط وفعل وفعالية بالانغماس في أمور الدنيا وترك أمور الآخرة، وتناسى كثير من قيادات التصوف المتأخرين القواعد الأساسية التي أكد عليها أئمة التصوف الأولون بأن الدنيا مزرعة للآخرة، ومجال العمل الصالح تمهيداً لدار الحساب والجزاء، ومجال للعقل والفاعلية، وحمل الأمانة وتبليغ الرسالة، والقيام بحق الاستخلاف وواجب العمران وفريضة الشهود الحضاري.